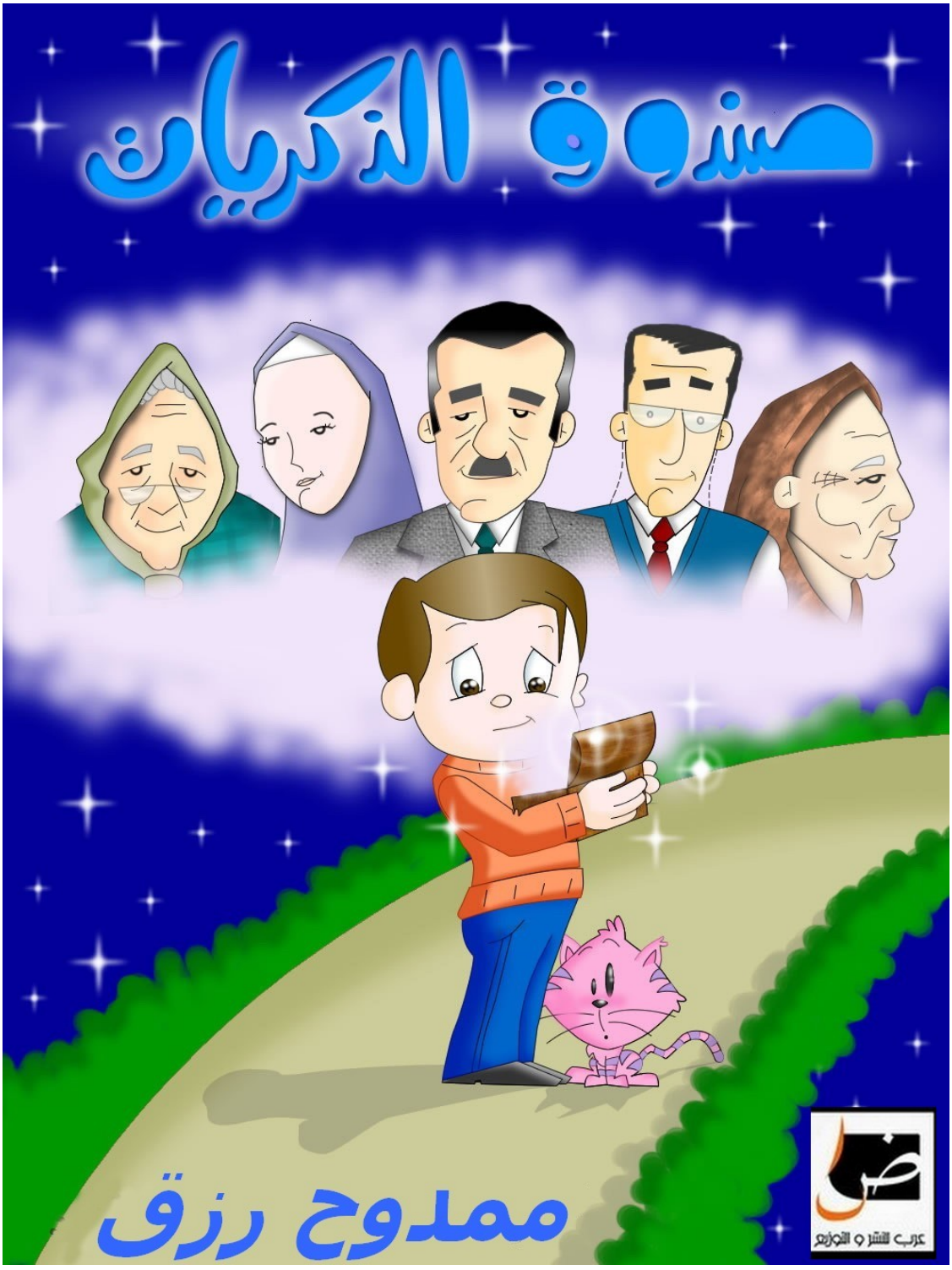

لوحة الغلاف للفنان محمد صبري

إلى جدتي

زينب لاشين

صندوق الذكريات

(١)

الشتاء يجعلني في سعادة كبيرة .. أنا مثل أصدقائي أحب الأجازة الصيفية، والمرح واللعب على شاطيء البحر مع إخوتي .. لكن الشتاء هو أحب فصول السنة إلى قلبي .. أشعر دائما بالبهجة، وأنا أرتدي الملابس الثقيلة التي تخفف من البرودة؛ فتجعلها لذيذة وناعمة خاصة وقت النوم آخر الليل تحت أغطية الفراش، بينما أنصت لصوت المطر بالخارج .. المطر الذي يجعل الناس تظل في بيوتها؛ فتصبح الشوارع خالية تماما .. أحب هدوء حجرات المنزل في الشتاء، وكذلك وقوفي في الشرفة كي أشاهد غيوم السماء، وقطرات المطر التي تنهمر فوق أسطح البيوت وأرض الشارع والسيارات .. في الصباح الباكر أشم رائحة الشتاء التي أعرفها جيدا، التي تجعلني أشعر كأنني أطير بنشوة كالمسحور، بينما كل شيء في الحياة يحتضنني بحب .. لكن هذا العام سعادتي بالشتاء ناقصة بسبب مرض جدتي التي تعيش معنا منذ سنوات .. أنا أحب جدتي كثيرا .. دائما تظل بجانبي حينما يغضب مني أبي أو أمي .. جدتي طيبة جدا، ووجهها يفيض بالحنان .. عودتني أن تحكي لي قبل النوم حكايات جميلة حتى أصابها المرض، ولم تعد قادرة على الحكي؛ فأصبحت أتمنى لها الشفاء كل لحظة حتى تعود وتسعدني من جديد بحنانها، وحكاياتها الجميلة.

(٢)

اشتد المرض على جدتي، واشتد معه قلقنا جميعا حتى جاء يوم حضر فيه الطبيب إلى منزلنا، ودخل حجرة جدتي وأمضى قليلا من الوقت .. بعد خروجه بكى الجميع بألم ومرارة .. أدركت أن جدتي ماتت، وشعرت أن الزمن توقف فجأة، وأنني غير قادر على أن أرى أو أسمع أوأفعل أي شيء حتى مشاركة أفراد أسرتي البكاء .. على الرغم من أن كل شيء بداخلي كان يبكي بحرقة شديدة.

(٣)

مرت عدة أيام لم أستطع خلالها الذهاب إلى المدرسة .. كان الحزن أقوى منا جميعا .. في أي مكان داخل المنزل نرى وجه جدتي بملامحه الطيبة، وابتسامتها الجميلة الرقيقة .. كان فراقها أكبر من أن نحتمله؛ فأصبح كل فرد من الأسرة يعيش في حزنه .. قليل الكلام .. كثير التفكير في العجوز التي كان وجودها بيننا سببا دائما للبهجة والفرح والاطمئنان .. كنت أظل وحيدا في حجرتي أتذكر أيامها الرائعة، وحكاياتها الممتعة آخر كل ليل .. كنت أتذكر أيضا كم كانت ضعيفة بسنوات عمرها الكثيرة، وجسدها الضئيل ومرضها الذي لم تستطع أن تتحمله .. لأول مرة منذ وفاتها شعرت بالدموع تسيل من عينيّ .. لم أكن أرى شيئا في هذه اللحظة سوى ابتسامة جدتي وهي تشرق بين تجاعيد وجهها الطيب.

(٤)

عدت إلى المدرسة والحزن لا يزال ساكنا بداخلي .. في نهاية حصة اللغة العربية طلب منا الأستاذ أن نكتب في واجبنا المدرسي موضوعا عن (الذكريات)، وما الذي تعنيه بالنسبة لنا .. في طريق عودتي من المدرسة إلى البيت كنت أفكر كثيرا في جدتي التي رحلت وتركتني .. كنت أسأل نفسي كيف هي الآن ؟ .. هل هي سعيدة ؟ .. هل لا تزال عجوزا وضعيفة أم أنها استردت شبابها وصحتها ؟ .. ما الذي تشعر به في هذه اللحظة ؟ .. لم تتوقف الأسئلة بداخلي حتى وصلت إلى الشارع الذي أسكن به، ولكنني قبل أن أصعد للمنزل وجدت امرأة عجوز تجلس فوق الرصيف المواجه للبيت، وأمامها سلة ممتلئة بالليمون .. لا أدري ما الذي جعلني أتوقف لأشاهد هذه المرأة .. شيء لا أعرفه دفعني لتأمل وجهها، ونظرات عينيها .. كانت تبيع الليمون بيدين مرتعشتين ثم وجدتها فجأة تنظر إليّ وتبتسم .. أدركت أنها لاحظت وقوفي، وتطلعي إليها .. شعرت بالارتباك فصعدت مسرعا إلى منزلي، وحينما وجدت أمي سألتها :

ـ هل رأيتِ المرأة العجوز التي تبيع الليمون أمام البيت ؟

أمي : نعم

ـ أنا لم أرها هنا قبل ذلك

ـ لماذا تسأل عنها ؟

ـ لا شيء ...

صمت قليلا ثم سألت أمي :

ـ ألا تريدين أن أشتري بعض الليمون ؟

ـ لا بأس

أعطتني أمي النقود، وعلى الفور نزلت إلى الشارع، وذهبت إلى العجوز التي أخذت مني النقود، وقبل أن تعطيني الليمون سألتني مبتسمة :

ـ لماذا كنت تقف وتنظر لي منذ قليل .. هل أشبه أحدا تعرفه ؟

فكرت قليلا ثم قلت :

ـ لا أعرف

ثم تمليت أكثر في ملامحها للحظات وعدت لأقول :

ـ ربما تشبهين جدتي

اتسعت ابتسامتها وهي تسألني :

ـ وكيف حال جدتك ؟

قلت لها في حزن :

ـ ماتت منذ أيام

انتقل حزني إلى وجهها وصمتت قليلا ثم قالت :

ـ زوجي أيضا مات منذ فترة قصيرة

وجدتني أسألها بتلقائية :

ـ هل لديك أحفاد ؟

ابتسمت ووجهها محتفظ بحزنه ثم قالت :

ـ ليس لدي أولاد حتى يكون عندي أحفاد

شعرت بمزيد من الحزن من أجلها وهي تناولني كيس الليمون .. أخذته منها، وقبل أن أتركها قالت :

ـ لو كان عندي ابن أو حفيد كنت سأتمنى أن يكون مثلك
ابتسمت قائلا :
ـ شكرا لك
عدت إلى منزلي وأنا أشعر لأول مرة مند وفاة جدتي بقليل من البهجة التي لا أعرف سرها.

(٥)

في المساء جلست لأكتب موضوع (الذكريات) الذي طلبه أستاد اللغة العربية .. كتبت عن أن الذكريات هي أوقات الماضي الجميلة التي نحتفظ بها في ذاكرتنا طوال حياتنا .. اللحظات السعيدة برفقة الأسرة والأقارب والجيران والأصدقاء وزملاء الدراسة .. الأماكن والأشياء والأحداث التي مرت وتركت تأثيرات رائعة في نفوسنا، وتجعلنا نحب دائما أن نتذكرها ولا ننساها أبدا .. كتبت سطورا كثيرة عن كل هذا، وبعد أن انتهيت أغلقت كراستي وتوجهت نحو النافذة .. كانت السماء تمطر، والرصيف المقابل خاليا .. قلت في نفسي أن بائعة الليمون العجوز قد عادت إلى بيتها، وأنها الآن وحيدة جدا.

(٦)

في الفصل قرأ كل تلميذ منا ما كتبه عن (الذكريات) ، وفي نهاية الحصة وقف أمامنا أستاذ اللغة العربية وقال :
أنا سعيد جدا بكتاباتكم عن (الذكريات) لأنها جميلة حقا، ويجمع بينها تعريفكم للذكريات بأنها فقط الأحداث الجميلة .. هنا أريدكم أن تفكروا معي في أن الذكريات قد لا تعني الأشياء الرائعة فحسب، وإنما هي أيضا الأحداث العادية التي تتحول حين تكبرون إلى أحداث جميلة لمجرد أنها أصبحت من الماضي .. الحياة في الطفولة قد تكون مليئة بالبهجة والسعادة والمرح، ولكنها قد لا تصبح كذلك بعد أن تفارقنا هذه الطفولة .. ونحن أطفال نسعد بالعيش مع الأشخاص القريبين منا، والذين نحبهم ونحرص عليهم، لكن حينما يغيب عنا أي شخص من هؤلاء، ونشعر بالألم والحزن لفراقه؛ فإننا لا نملك سوى أن نتذكر كل ما يتعلق بهذا الشخص .. كل ما جمعنا به، وكل ما عشناه معه .. ليست الأشياء الجميلة فحسب، وإنما كل الأشياء مهما كانت بسيطة، ومهما كانت صغيرة ومهما بدت وكأنها لا تحمل معاني كبيرة أو تأثيرات قوية، ولكن يكفي أنها تخص عالما لم يعد بوسعنا أن نعيشه مرة أخرى، وأشخاص لم يعد بمقدورنا أن نعيدهم إلينا ثانية، وأماكن لم يعد باستطاعتنا أن نسترد جمالها القديم الذي كانت عليه .. لهذا نتمسك في كل لحظة بالحنين إلى هذا العالم ، وهؤلاء الأشخاص وهذه الأماكن .. من أجل ذلك نحافظ على صندوق الذكريات الكامن بداخل كل واحد منا، ونرعاه جيدا باسترجاع الطفولة، واستعادتها من جديد بقدر ما نستطيع .. لا تتوقفوا عن التذكر.

(٧)

في طريق العودة من المدرسة إلى البيت ظللت أفكر في ما قاله الأستاذ عن الذكريات .. كنت أشعر أن في هذا الحديث رسالة لي تتعلق بموت جدتي، وافتقادي الهائل لها .. وصلت إلى المنزل، وقبل أن أصعد نظرت إلى الرصيف المقابل .. كانت بائعة الليمون العجوز تجلس في مكانها المعتاد، وكالعادة ابتسمت حينما رأتني فبادلتها الابتسام .. لا أدري لماذا تأكدت لحظتها أنها بالفعل تشبه جدتي ..

تشبهها كثيرا .. بعد أن أغلقت على نفسي باب الحجرة أصابني فجأة هاجس أربكني، وجعلني أشعر الخوف .. ماذا لو عدت ذات يوم من المدرسة، ولم أجد بائعة الليمون جالسة على الرصيف ؟ .. ماذا لو سألت عنها، وعرفت أنها ماتت مثلما ماتت جدتي خاصة أنها عجوز مثلها ؟ .. وجدت نفسي أتجه إلى النافذة، وأنظر منها إلى الرصيف المقابل كأنني أتأكد من أن بائعة الليمون لازالت جالسة في مكانها .. هي بخير ، وستبتسم لي كما تعوّدت حين تراني .

(٨)

هذا المساء جلست على مكتبي، وبعد أن أنهيت واجبات المدرسة أخرجت كشكولا جديدا، وبدأت أكتب عن كل شيء .. الشتاء والمنزل والجدة وأستاذ اللغة العربية وبائعة الليمون العجوز .. أكتب عن الحياة كما أفكر فيها وأشعر بها الآن .. بدأت أكتب، وأنا أفكر في أن هذا أفضل ما يمكنني فعله للاعتناء بصندوق الذكريات الذي ينمو بداخلي .. أفضل ما يمكنني فعله كي أرى دائما ابتسامة جدتي وهي تشرق بين تجاعيد وجهها الطيب.

الكلمات الممسوحة

(الكلمات والحروف الممسوحة تتلاشي، تتبخر .. تختفي من الوجود ولا تعود مرة أخرى) .. تلك كانت إجابة والديه ومعلميه في المدرسة على سؤاله: (أين تذهب الكلمات التي يمسحها ـ نتيجة أي خطأ ـ من كراساته أو هوامش كتبه ؟) .. الإجابة التي لم تقنعه .. لماذا لا تذهب الكلمات الممسوحة إلى مكان لا يمكن رؤيته ؟ .. كان (علاء) يفكر في ذلك كثيرا .. يعطي احتمالا قويا لانتقال تلك الكلمات إلى عالم آخر .. ربما أيضا إلى ولد ما من ذلك العالم الذي لا يعرف عنه شيئا .. يوم بعد يوم تزداد الفكرة قوة في ذهن (علاء) .. ربما هناك ولد مثله في دنيا مختلفة تذهب إليه الكلمات والحروف الممسوحة بطريقة ما، ويستخدمها في حياته .. من هو ذلك الولد، وأي عالم يعيش فيه؟! .. بعد تفكير عثر (علاء) على وسيلة يمكنه بواسطتها التوصل إلى إجابة .. اشترى كراسة جديدة ثم كتب داخلها بالقلم الرصاص:

(مساء الخير .. أنا علاء .. لو كنت موجودا بالفعل أتمنى أن ترد على رسالتي، وأن تخبرني من أنت وأين تعيش)

ثم مسح ما كتبه، وأغلق الكراسة متمنيا ألا يطول انتظاره للرد.

في صباح اليوم التالي فتح (علاء) الكراسة فوجد هذه الرسالة:

(صباح الخير .. أنا نسخة منك، وأحمل نفس اسمك .. لا أعيش في عالم ثابت أو زمن محدد؛ فأنا اتنقل بين الحكايات والأماكن التي تتخيلها أنت، وتحلم بها .. العوالم التي تستقر وتتغير في داخلك دون أن تخبر بها أحدا .. أما الكلمات التي تمسحها من صفحاتك وتصل لي (خاصة وانت تكتب موضوعت التعبير) فهي اللغة التي استخدمها في التخاطب مع كل ما بداخل الحكايات التي اتنقل بينها: البشر والحيوانات والطيور والأشجار والعرائس والتماثيل والصور .. الكلمات والحروف الممسوحة تتوالد منها كلمات وحروف أخرى كثيرة تساعدني في تحقيق أمنياتك السرية).

فرح (علاء) كثيرا بهذه الرسالة، وبعدها كلما تخيل حكاية أو سفرا لمكان أصبح يكتب في الكراسة تصوراته وأحلامه عن تلك الحكاية أو ذلك المكان ثم يمسحها حتى تصل إلى (علاء) الآخر فيستخدمها في تنفيذ الرحلات والمغامرات المختلفة.

لكن بعد فترة سأل (علاء) نفسه: لماذا يظل هو حبيسا في الواقع، ليس بمقدوره سوى التخيل وكتابة الكلمات ومسحها بينما (علاء) الآخر هو الذي يستمتع بالعيش داخل العوالم والأزمنة الساحرة .. قرر (علاء) ألا يمسح الكلمات والحروف بعد ذلك .. أصبح كلما أخطأ في الكتابة يشطب على الكلمة أو يضعها بين قوسين أو يضع عليها علامة x .. أحيانا كان يضطر لإعادة كتابة الصفحة إذا ما تكررت الأخطاء حتى لا يضطر إلى مسح الكلمات.

ذات يوم استيقظ (علاء) من نومه فوجد (علاء) الآخر جالسا على طرف السرير .. رآه بالفعل نسخة منه .. حينما سأله عن سبب وجوده؛ أخبره (علاء) الآخر بأنه لم يعد يستطيع التخاطب مع الذين يعيشون في الحكايات والأماكن المتخيلة بعدما توقفت الكلمات والحروف عن الوصول إليه؛ لذا قرر أن يأتي ليعيش معه.

قال له (علاء) أن هذا مستحيل، فرد عليه (علاء) الآخر بأنه لن يمكن لأحد رؤيته وبهذا لن يشعر به أحد.

لم يعرف (علاء) كيف يتصرف: هل أخطأ حينما توقف عن مسح الكلمات؟ .. أم أنه أخطأ من البداية حينما أرسل رسالة إلى ذلك الولد الذي عرف فيما بعد أنه نسخة منه؟ .. لم يكن لديه الكثير من

الوقت فقد كان عليه الإسراع إلى الطاولة لمشاركة والديه وإخوته الإفطار .. حينما اكتمل جلوس الأسرة مد (علاء) الآخر يده وطوح الطبق من أمام (علاء) إلى الأرض فتناثر الطعام على الطاولة .. وقف (علاء) فزعا، ونظراته المرتبكة غير قادرة على مواجهة أفراد أسرته الذين حدقت عيونهم بغضب في وجهه .. كيف يفهمهم بأنه لم يفعل ذلك .. أمره والده أن يترك الطاولة وألا يشاركهم الطعام طوال أسبوع كامل .. اعتذر (علاء) ثم توجه إلى حجرته ليرتدي ملابس المدرسة وهو ينظر إلى (علاء) الآخر المبتسم بشماتة.

في الفصل وبينما كان المدرس يشرح على السبورة؛ فوجيء (علاء) بأن (علاء) الآخر يمد يده ويضرب التلميذ الجالس بجواره .. أسرع الولد بالتوجه للأستاذ شاكيا له (علاء)، الأمر الذي جعل الأستاذ يطرده من الفصل .. لم يعرف (علاء) كيف يُقنع المدرس بأنه لم يضرب زميله وإنما (علاء) الآخر الذي لا يراه أحد سواه .. كان (علاء) الآخر يواصل الضحك.

تأكد (علاء) أن هذا الولد الذي يمثل نسخة منه سوف يدمر حياته انتقاما من عدم مسحه للكلمات .. في حجرته داخل البيت قرر (علاء) أن يتوصل لاتفاق مع (علاء) الآخر يضع حدا للمشكلة .. قال له:

(سأعود لكتابة الحكايات التي أتخيلها والأماكن التي أحلم بها ثم أمسح ما كتبته لتستخدم أنت الكلمات والحروف الممسوحة في التخاطب مع من في تلك الحكايات والأماكن من بشر وحيوانات وطيور وأشجار وعرائس وتماثيل وصور .. لكنني أريدك بعد كل رحلة أن تفعل مثلي .. أن تكتب ما حدث وترسله لي لأعرف ما لم أتمكن من تخيله، وما لم يأت في أحلامي).

وافق (علاء) الآخر، وبالفعل اختفى من حياة (علاء) الذي عاد لمسح الكلمات، وانتظار الرسائل التي تحكي له وتصف ما لم يخطر في باله.

ما لا ينبغي نسيانه

كان الولد الصغير يشعر بالملل .. يستيقظ في الصباح الباكر .. يذهب إلى المدرسة .. يعود إلى المنزل .. يتناول طعام الغذاء .. يرتاح قليلا ثم يقوم بأداء واجباته المدرسية .. يشاهد بعضا من برامج التليفزيون قبل أن يتناول عشائه ثم يأوي إلى الفراش لينام مبكرا .. بلا أي تغيير أو اختلاف .. هذا ما جعله يفكر في أي شئ يمنحه التسلية، وقضاء وقت فراغ ممتع .. ذهب الولد الصغير إلى أبيه وقال له : أبي .. هل يمكنني اقتناء حيوان أليف في المنزل ؟

قال والده : بالطبع .. سآخذك غدا إلى متجر الحيوانات الأليفة لتشتري الحيوان الذي تفضله.

سعد الولد كثيرا، وبالفعل ذهب مع والده إلى بائع الحيوانات .. هناك تذكر أن صديقا له يمتلك سلحفاة جميلة كان يحكي له عنها دائما .. قرر الولد الصغير أن يشتري سلحفاة هو الآخر .. عاد الولد إلى منزله، وهو يحمل صندوقا بين يديه بداخله سلحفاة صغيرة .

وضع الولد الصغير السلحفاة في أحد أركان المنزل، وبدأ يستعد للعب معها .. لكنه فوجئ بأن السلحفاة لا تخرج رأسها ولا تتحرك .. حاول بشتى الطرق أن يجعلها تتحرك أو على الأقل تخرج رأسها ولكنها لم تفعل .. ذهب إلى الثلاجة، وأحضر قليلا من الخضراوات المبللة بالماء، ووضعها أمام السلحفاة؛ فما كان منها إلا أن أخرجت رأسها قليلا لتتشمم الطعام .. فرح الولد، واقترب منها لكنها سارعت بإدخال رأسها ثانية .. حزن الولد كثيرا وذهب إلى والده وقال له : أبي .. السلحفاة الصغيرة لا تريد اللعب معي.

والده : كيف ؟

الولد : كلما حاولت الاقتراب منها لكي نلعب سويا أجدها تدخل رأسها بسرعة ولا تتحرك أبد .

ابتسم والده وقال له : ألم تكن تعلم أن السلحفاة تفعل ذلك دائما حينما تشعر بالخطر ؟

الولد : ولكنني لا أريد إيذائها .. أنا فقط أريد اللعب معها.

والده : وكيف يمكن للسلحفاة أن تعرف هذا ؟

الولد الصغير : معنى هذا أنها من المستحيل أن تلعب معي ؟

والده : السلاحف من الحيوانات التي من الممكن أن يستمتع الناس بمراقبتها وهي تسير وتأكل دون الاقتراب منها كي لا تخاف.

الولد الصغير : ولكنني يا أبي كنت أريد حيوانا مسليا يمكنني أن ألعب معه.

والده : حسنا .. هل تود شراء قطة صغيرة مثلا ؟

الولد الصغير في فرح : نعم .. نعم .. أريد قطة صغيرة .. القطط مسلية بالفعل.

ذهب الولد الصغير مع أبيه ثانية إلى متجر الحيوانات، واشترى قطة صغيرة ناعمة وجميلة وعاد بها إلى المنزل.

بالفعل كانت القطة الصغيرة مسلية للغاية بالنسبة للولد الصغير .. كانت تشاركه المرح واللعب وقضاء الأوقات الممتعة؛ فبدأ الطفل الصغير يتخلص من الملل .. لكنه لم ينتبه إلى أن السلحفاة الصغيرة كانت تتحرك في المنزل بشكل دائم .. كان مشغولا باللعب مع القطة بينما السلحفاة تحاول البحث عن طعام لأنها كانت جائعة جدا .. كان الطفل الصغير مهتما بدرجة كبيرة بقطته .. كان يحرص دائما على ملأ طبقي الطعام والشراب لها .. لكنه مع انشغاله بالقطة الصغيرة نسى أن السلحفاة كائن حي يشعر بالجوع، ويظل يتألم إذا لم يجد طعاما يأكله .. حتى جاء يوم، وبعد أن استغرق الولد الصغير في نوم عميق .. رأى في سباته كأن السلحفاة الصغيرة تخاطبه وتقول:

(هل تستمتع جيدا بقطتك الجميلة ؟ .. هل وجدت أنها مسلية أكثر مني ؟ .. نعم .. أنت تلعب وتمرح معها، وتهتم بطعامها وشرابها ورعايتها .. أنت تحتضنها دائما، وتداعب شعرها الناعم، وتربت على جسدها الرقيق بحب .. ماذا عني ؟ .. هل لأنك وجدتني غير نافعة لتسليتك تتركني جائعة هكذا ؟ .. هل ستكون سعيدا إذا لم تجد طعاما بينما تكون في أشد الحاجة إليه ؟ .. هل سيرضيك أن تجدني في يوم من الأيام ميتة في ركن من أركان المنزل بعد أن أهملت إطعامي طوال هذه الفترة ؟)

في الصباح استيقظ الولد الصغير من النوم، وهو يشعر بالذنب لأنه أهمل السلحفاة الجائعة .. قبل أن يذهب إلى المدرسة أحضر من ثلاجة المنزل كثيرا من الخضراوات، وقام بغسلها جيدا ثم وضعها أمام السلحفاة التي بدأت تأكلها على الفور لأنها كانت جائعة جدا .. ظل الولد الصغير يراقبها ثم مد يده ليربت على جسدها، لكنها كالعادة أسرعت بإدخال رأسها؛ فابتسم وتركها تكمل طعامها، وخرج من منزله متجها إلى المدرسة.

صفة

في شارعنا يسكن رجلان .. أحدهما يقول عنه الناس أنه طيب جدا لأنه لا يؤذي أحدا بالطريق، ويساعد الفقراء، ويلقي على الدوام بالتحية الرقيقة على العابرين .. الرجل الآخر يقول عنه الناس أنه شرير جدا لأنه تعوّد أن يسب الآخرين، ويسخر من كل من يتحدث معه.

في يوم من الأيام مررت بالقرب من بيت الرجل الطيب .. سمعت صرخات أطفال تبكي .. كانت نافذة الرجل مفتوحة .. من وراءها كان الرجل الطيب ينهال بالضرب على أطفاله بقسوة شديدة، ودون رحمة .

في يوم آخر مررت أمام بيت الرجل الشرير، ومن وراء نافذته رأيته يقدم طبقين من الطعام والماء لكلب صغير .. كان يربت على جسده بيدين حانيتين، ويحثه على تناول ما في الطبقين بينما يتطلع إليه الكلب الصغير بحب وفرح .

داخل حجرتي أقف في النافذة .. أنظر إلى الناس في الشارع .. أحاول البحث عن كلمات أخرى تصلح لتفسير الوجوه .

حجرتي

في صباح ذلك اليوم استيقظ الولد الصغير، وهو يشعر ببعض الدوار في رأسه بعد ليلة طويلة قضاها في نوم مضطرب .. مكث للحظات في فراشه ثم نهض متجها إلى الحمام .. بعد الاغتسال عاد الولد الصغير إلى حجرته، وهو لا يزال يواصل تجفيف وجهه بالمنشفة .. فجأة .. انتبهت حواسه إلى ذلك السكون الغريب الذي يحيط به .. بدأ يفكر في أنه لم يسمع أي صوت من أصوات أسرته منذ استيقاظه .. ترك المنشفة .. خرج إلى الصالة .. لم يكن هناك أحد .. بحث في بقية حجرات المنزل .. كانت كلها خالية .. عاد إلى الصالة وراح يفكر في دهشة عارمة .. أين ذهب الجميع ؟! .. أين ذهب والداه وأشقاءه ؟! .. لم يحدث أبدا من قبل أن غادر الجميع المنزل مرة واحدة بهذه الطريقة .. ثم .. كيف تركوه نائما وخرجوا هكذا ؟! .. ما الذي حدث ؟! .. في تلقائية ذهب إلى النافذة حائرا .. تزايدت حدة دهشته بدرجة هائلة .. لم يكن هناك أي شخص يسير في الشارع .. جميع المحال مغلقة .. الباعة الجائلون الذين اعتادوا افتراش الرصيف المقابل بأقفاص الخضار والفاكهة لا يوجد أي أثر لهم .. لم تكن هناك أية سيارة تعبر الطريق أو تقف على أي جانب منه.

ترك الولد الصغير النافذة وعاد إلى الداخل وهو في قمة التعجب .. ما الذي حدث اليوم ؟! .. ماذا أصاب المنزل والشارع ؟! .. أي أمر رهيب حدث أثناء نومه، وجعل الجميع يختفون بتلك الطريقة ؟!.

ذهب مسرعا إلى (التليفزيون) وقام بتشغيله .. جميع القنوات مشوشة .. ذهب إلى الراديو .. أيضا جميع المحطات مقفولة .. أغلق الولد الصغير المذياع، ووقف يتلفت حوله غير مصدق .. ماذا حل بالعالم ؟! .. بالتأكيد شئ ما حدث .. شئ قاس جدا جعل الأشخاص يختفون والأشياء تتعطل .. ما عدا هو .. حينئذ بدأ شعور غريب بالارتياح يتسلل إلى صدره سرعان ما تحول إلى سرور وفرح .. بدأ يتجول داخل المنزل، وعلى وجهه ابتسامة مرحة .. بدا وكأن عينيه تتطلعان إلى الأشياء من حوله للمرة الأولى .. قضى الولد الصغير وقتا طويلا في بهجة التنقل بين حجرات النوم، والوقوف في النافذة .. تملكته رغبة مفاجئة في ارتداء ملابسه، والخروج إلى الشارع حيث يمكنه الاستمتاع بالسير وحيدا .. بلا أشخاص يسيرون حوله أو سيارات تعبر بجانبه أو أصوات مزعجة تفسد حرية تجوله.

بالفعل خرج إلى الشارع .. راح يسير مبتسما يغمره شعور رائع بالسكينة والهدوء الأمر الذي جعله يصدر من بين شفتيه صفيرا متناغما للحن رقيق.

ظل الولد الصغير يواصل الاستمتاع بالسير بمفرده بعد أن تخلى ذهنه عن التفكير في سبب لما حدث اليوم .. كان كل ما يستحوذ على نفسه هي تلك النشوة الصافية لكونه وحيدا .. بلا أحد .. بدت الشوارع الخالية في عينيه ذات جمال خاص لم يعهده من قبل .. أيضا البيوت والنوافذ بدا صمتهم إلى نفسه حميميا .. رائقا بمودة لم يجربها في أوقات سابقة .

قضى الولد الصغير وقتا طويلا في السير بمفرده إلى أن بدأت السماء تعلن بداية حلول الليل .. فجأة .. شعر الولد الصغير بشيء من الخوف يتسرب إلى نفسه .. تراجعت أحاسيس المرح والسرور والبهجة التي كانت تتملكه، ليحل محلها شعور بالفزع نتيجة أنه وحيد إلى هذه الدرجة .. وقف في

منتصف الطريق الخالي متلفتا حوله .. كان الليل الذي حل قد جعل البيوت والأرصفة والمحال المغلقة تضيع معالمها داخل الظلام .. بدأ الولد الصغير يشعر برعشة شديدة في أطرافه، وتسارعت دقات قلبه، وأحس في رأسه بدوار حاد .. على الفور استدار عائدا بسرعة إلى منزله بينما عينيه تحاولان البحث على جانب الطريق، وفي شرفات البيوت عن وجه أي شخص ليشعر بالاطمئنان حتى يصل إلى المنزل لكنه لم يجد .. تزايدت سرعة خطواته حتى صارت أقرب إلى الجري، وبدأ العرق الغزير ينهمر من وجهه حتى وصل بأنفاس لاهثة إلى البيت.

هناك وجد جميع أفراد أسرته كما هم .. يتحركون داخل الصالة، وفي الحجرات كما تعوّد دائما أن يراهم .. كان أبوه جالسا فوق كرسيه المعتاد يقرأ الجريدة، وحينما رآه التفت إليه قائلا :

ـ أين كنت ؟ .. هل أديت واجباتك المدرسية ؟ .. هل أديت الصلاة ؟ .. بالطبع كنت مشغولا باللعب مع أصدقائك طوال اليوم ولم تفعل شيئا له قيمة .. ليست هناك فائدة منك.

خرجت والدته من المطبخ وحينما رأته قالت :

ـ كيف تخرج من المنزل دون أن تتناول طعامك ؟ .. لا تنسى أن تستحم وترتدي ملابس نظيفة .. بالطبع لم ترتب فراشك بعد أن استيقظت من النوم .. حاول ولو لمرة واحدة أن تنظم كل هذه الأشياء المبعثرة في حجرتك .. أنا لم أر في حياتي ولدا كسولا مثلك.

دخل الولد الصغير إلى حجرته .. كان أشقاءه كالمعتاد يتبادلون المزاح والشجار بصوت مرتفع .. حينما رأوه تبادلوا توجيه الحديث له قائلين :

ـ لماذا أنت شاحب هكذا ؟ .. هل جرى وراءك أحد الكلاب في الشارع ؟

ـ أخبرتك من قبل ألا تستعير أدواتي المدرسية .. أين أضعت علبة الألوان الخاصة بي ؟

ـ أرجوك .. أريد النوم الليلة .. حاول ألا تتقلب كثيرا وأنت نائم بجانبي وإلا أيقظتك

لم يستطع الولد الصغير أن يجيبهم .. ذهب إلى النافذة .. جميع الأشياء كما هي .. كما اعتاد دائما أن يراها .. زحام الأشخاص والسيارات .. صخب الباعة الذين يفترشون الرصيف المقابل .. الضوضاء الصادرة من أجهزة الراديو داخل المحال المفتوحة.

كانت الحيرة والدهشة في أعماقه قد وصلتا إلى الحد الذي أصبح معه عاجزا عن الكلام، أو حتى مجرد إبداء انطباع واضح على ملامح وجهه .. أحس بأن رأسه مشلولة بالفعل .. غير قادرة على التفكير أو الفهم .. لم يعد أمامه سوى أن يظل صامتا بينما كل ما بداخله لا يزال محتفظا بالاستفهام وعدم التصديق.

كان يشعر بالإرهاق الشديد .. لذا أسرع بأداء واجباته المدرسية والصلاة والاستحمام وارتداء الملابس النظيفة وتناول الطعام وتنظيم الأشياء المبعثرة في حجرته ثم توجه إلى الفراش وأغمض عينيه.

في صباح اليوم التالي استيقظ الولد الصغير، وهو يشعر ببعض الدوار في رأسه بعد ليلة طويلة قضاها في نوم مضطرب .. مكث للحظات في فراشه محاولا بصعوبة إبقاء عينيه مفتوحتين .. تدافعت الأفكار والأسئلة داخل رأسه بشكل سريع وحاد .. هل كان يحلم ؟! .. هل ما حدث بالأمس مجرد كابوس صغير ؟! .. أم أنه كان حقيقة بالفعل ؟! .. كيف اختفى كل شيء ثم عاد مرة أخرى ؟، ولماذا ؟ .. لم يستطع أن يجد إجابة لشلال الأسئلة الذي لم يكف عن التدفق داخل نفسه.

ظل الولد الصغير على حالته هذه طوال اليوم .. غير قادر على أن يحكي لأحد عما حدث خشية أن يتهم بالجنون .. في المدرسة .. في الشارع .. مع الأصدقاء .. إلى أن انتهى من واجباته المدرسية في نهاية اليوم .. أمضى قليلا من الوقت في النافذة يراقب العابرين حتى شعر برغبة ملحة في تناول كراسة الرسم وعلبة الألوان .. أمام الصفحة الكبيرة البيضاء راح يفكر في أشياء كثيرة : أسرته .. أصدقائه .. المدرسة .. الشارع .. ثم بدأ في الرسم .. لفترة طويلة ظل منهمكا فيما يرسمه، وبعد أن انتهى تأمل لوحته وابتسم .. كانت هناك نشوة حقيقية تتسلل إلى روحه بينما عينيه تتمليان في الحجرة الصغيرة التي رسمها فوق بياض اللوحة .. حجرة صغيرة ذات باب مغلق، ونافذة لها سطح زجاجي موصد .. كان يجلس وحيدا بداخلها ليفكر في حياته ، وفي نفس الوقت كان مطمئنا لوجود أشخاص يعيشون ويتحركون وراء الباب المغلق وخلف النافذة الموصدة .. أشخاص يمكنه ببساطة أن يخرج إليهم إذا ما أحس فجأة أنه خائف .

العجوز والشجرة

في يوم ما أتى رجل عجوز إلى الشارع .. أمام شرفتي زرع نبتة صغيرة .. كل يوم كان يأتي ليسقيها وينزع الأفرع الذابلة .. ظل على هذا الأمر لفترة طويلة حتى عندما أصبح يجلس فوق كرسي متحرك .. كان يأتي ليفعل ذلك.

بعد سنوات كثيرة صرت طفلا كبيرا، وصارت الشجرة عالية جدا .. لكن الرجل العجوز لم يعد يأت .. مع ذلك لازلت أقف في النافذة كل يوم .. أتأمل ابتسامة الرجل العجوز فوق الأغصان الكثيفة المتشابكة .. كسحابة بيضاء توشك أن تمطر لتسقي الشجرة.

صورة المباراة

في الأجازة الصيفية عمل (نور) صحفيا بإحدى صحف المدينة .. لم يمض وقتا طويلا في عمله حتى اشتهر بكونه مصورا بارعا، وبحبه الشديد لكاميرته التي لا تفارقه أبدا .. في يوم من الأيام استدعى رئيس تحرير الصحيفة (نور) إلى مكتبه، وطلب منه التوجه إلى الاستاد لالتقاط صور لمباراة ستلعب غدا .. ذهب (نور) إلى الاستاد، وهناك قابل زملائه من المصورين الذين يعملون في صحف أخرى .. كانت المباراة بين فريق قوي يتصدر البطولة، وآخر ضعيف يتذيل ترتيب الفرق .. لاحظ المصورون بتعجب أن (نور) قد توجه إلى مرمى الفريق القوي ليقف وراءه .. حينما سأله أحدهم عن عدم وقوفه معهم وراء مرمى الفريق الضعيف الذي يتوقع أن تنهمر عليه الأهداف، أجابه (نور) بأن لديه فكرة يريد تنفيذها.

في مساء نفس اليوم، وبعد انتهاء المباراة التي شهدت بالفعل فوزا كاسحا للفريق القوي على الفريق الضعيف، دخل (نور) إلى مكتب رئيس التحرير الذي سأله عن صور الأهداف الغزيرة التي سُجلت في اللقاء؛ فأجابه (نور) بأنه لم يلتقط سوى صورة واحدة .. استغرب رئيس التحرير كثيرا وظهرت على وجهه ملامح الغضب فأسرع (نور) بتقديم الصورة إليه .. بمجرد أن رآها الرجل ضحك كثيرا، وقرر نشرها مع إعطاء مكافأة كبيرة لـ (نور) .. في اليوم التالي شاهد قراء الجريدة، وهم يتابعون التغطية الصحفية للمباراة صورة لحارس مرمى الفريق القوي بينما يجلس في المرمى أثناء سير اللقاء، ومنهمك للغاية بقراءة نسخة من الجريدة التي يعمل بها (نور).

جزيرة اللعب القديمة

كان لـ (طارق) صديقة تأتيه أحيانا في الحلم .. هذه الصديقة هي (شجرة العيون) .. كان (طارق) يرى نفسه بعد النوم، وقد تحوّل إلى طائر صغير يحلق في الليل، ثم يقف فوق أحد أغصان صديقته (شجرة العيون) .. في كل مرة كانت تنفصل عنها إحدى الأوراق التي تحمل عيناً، وتطير بعيدا فيتبعها (طارق) حتى تصل به إلى مكان غريب أو مجهول ليكتشفه .. آخر هذا الليل، وبعد أن استغرق (طارق) في نوم عميق، رأى نفسه يطير ويذهب إلى (شجرة العيون) .. انفصلت عنها إحدى الأوراق التي تحمل عيناً وطارت، فتبعها (طارق) حتى بدأ يسمع أصوات بكاء صاخبة .. وصلت ورقة الشجرة إلى جزيرة تسكنها لعب أطفال قديمة .. كانت هذه اللعب تبكي طوال الوقت .. تعجب (طارق)، وسأل ورقة الشجرة عن هذه الجزيرة، وعن كل هذه اللعب، ولماذا تبكي بهذا الشكل .. نظرت إليه الورقة بحزن، وأخبرته أن هذا المكان هو الذي تتجمع فيه كل اللعب التي تركها الأطفال، ورموها بعدما توقفوا عن اللعب بها لأنهم كبروا، وأن هذه اللعب تبكي حزنا على فراق أصحابها وقسوتهم تجاهها، لأنهم تخلوا عنها بعدما كانوا يهتمون بها ويعتنون بها ويأخذونها في أحضانهم أثناء النوم في طفولتهم .. شعر (طارق) بالأسى تجاه هذه اللعب، وبدأ يفكر بصوت عال عن ما الذي يمكنه أن يقوم به حتى يخّلص هذه اللعب من تعاستها، ويعيد إليها بهجتها.

في الصباح استيقظ (طارق) من النوم ثم تلفت حوله باندهاش كبير حينما رأى لعب أطفال كثيرة جدا تملأ غرفته عن آخرها وتضحك بينما تنظر إليه بامتنان .. ظل (طارق) ينظر إليها، ويسمع ضحكاتها بتعجب، وهو لا يتذكر شيئا مما حدث أمس.

صنبور عمومي

في أحد الأيام شديدة الحرارة، وقف (عوني) ليشرب الماء من صنبور عمومي في الشارع .. دخل بعد ذلك محلا قريبا، وبعد أن خرج نظر إلى الصنبور .. وجد قطرات الماء تتساقط منه .. حينما قرر أن يذهب لإحكام غلقه، وجد مجموعة من القطط التي كانت مختبئة من الشمس الحارقة تحت إحدى السيارات قد توجهت بسرعة نحو الصنبور، ووقفت تحته كي تحاول كل قطة أن تستقبل في فمها المفتوح أي قطرة ماء .. وقف (عوني) يراقب المشهد: كانت القطط كثيرة، وتبدو في غاية العطش، بينما قطرات الماء صغيرة جدا، وتتزل من الصنبور ببطء .. شعر بالألم في داخله؛ فقرر أن يفتح الصنبور من أجل هذه القطط .. لكنه حينما فعل؛ وجد كثيرا من العابرين يعاتبونه عتابا شديدا معتبرين أن ما قام به إهدارا للماء .. حاول أن يقنعهم، ولكنهم كانوا غير عابئين بعطش القطط التي ارتوت، وبدأت تتحرك للعودة تحت السيارة .. ظلت القطط تراقب ما يحدث بين (عوني) والسائرين .. كانت تتمنى لـ (عوني) أن ينتصر.

موت كلب

في المنزل المجاور مات رجل .. كانت لديه عائلة تبكي من أجله، وأصدقاء يحزنون لفراقه .. بالقرب من صندوق القمامة الكبير عند ناصية الشارع؛ كانت هناك جثة كلب صغير .. كان ذبابً كثيرا متجمعا فوق جسده الممدد دون حركة .. جاء عامل النظافة، ووضع الكلب الصغير في سلته، مع بقية القمامة .. لم يكن هناك سوى طفل صغير يقف في نافذة بيته ، ويتأمل المشهد.

المناديل الورقية

كان (وحيد) يبيع المناديل الورقية، وفي يوم من الأيام استقل قطارا ليبيع للمسافرين الأكياس الصغيرة .. كان طريق السفر طويلا، ولكن للأسف لم يشتر أحد من (وحيد) أي مناديل .. كان حزينا ومرهقا؛ فجلس في جانب إحدى عربات القطار واستغرق في النوم .. رأى نفسه في الحلم واقفا وسط الركاب، وقد تحول إلى ساحر يستطيع بمجرد النظر في عيني أي شخص أن يعيد إلى ذهنه كافة الذكريات السيئة التي عاشها في الماضي حتى يبدأ في البكاء .. رأى (وحيد) نفسه يرتدي قبعة الساحر وعبائته، ويمر على كل راكب لينظر في عينيه بقوة فيبكي فورا مستعيدا حدث مؤلم .. بعد أن يُبكي (وحيد) جميع ركاب القطار؛ يمر عليهم بأكياس المناديل الورقية الصغيرة فيشترونها كلها لتجفيف دموعهم الغزيرة .. بسعادة بالغة يخرج (وحيد) من القطار بعد وصوله إلى المحطة الأخيرة، وليس معه كيس مناديل واحد بينما النقود التي كسبها مستقرة بفرح في جيبه .. وصل القطار فعلا إلى محطته الأخيرة .. لكن (وحيد) الذي كان نائما استيقظ علي يد تربت على كتفه برفق، وبعد أن فتح عينيه راح يتملى في أكياس المناديل الورقية الصغيرة التي ظلت في يديه دون أن ينقص منها كيس واحد.